

2 - هندسة المساكن وتخطيطها الداخلي :

لا يعكس المظهر الخارجي للمساكن الجزائرية والذي يتسم عموما بالبساطة ، التكرار وقلة التفاصيل أي فكرة في الحقيقة عن هندستها الداخلية ، وقد أشار كثير من الكتاب إلى هذه الظاهرة .

هذه الميزة الموحدة بين جميع المساكن الجزائرية لم تأت بالصدفة ولم تكن وليدة الفراغ ، بل إنها كانت نابعة من فلسفة عميقة في المجتمع تنطلق من فهم عملي جدا للحياة مفاده أن المنزل بني في الحقيقة لأهل المنزل وليس لمن هم خارج المنزل من المارة والمتطفلين ، ولهذا فإن زينة المنزل يجب أن تنعكس داخل جدرانه وليس خارجها هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن هذه الظاهرة جسدت فعليا مبدأ المساواة بين طبقات المجتمع فإن الناظر إلى المساكن من الخارج يراها متشابهة جدا بحيث لا يمكنه تمييز مساكن الفقراء من الأغنياء ، وحتى من حيث الحجم فإنه لا يمكن تحديده في كثير من الأحيان لأن المساكن متراسة ومتداخلة بحيث يصعب تمييز حدودها ، وبهذه الطريقة لا حاسد ولا منتقد .

يتكون المسكن الجزائري أساسا من عناصر : السقيفة ، الفناء المركزي ، الأروقة ، الغرف (ومن ضمنها الحمام والمطبخ) وتوزع على طابقين في أغلب الأحيان فضلا عن الطابق الأرضي ، وأخيرا عنصر السطح .

1 - السقيفة (قاعة الاستقبال) :

عند تجاوزنا المدخل مباشرة تصادفنا أولى عناصر المسكن التي تتمثل في السقيفة وهي عبارة عن قاعة مستطيلة الشكل تحفها من الجانبين فتحات عميقة نوعا ما ترتفع عن الأرض بحوالي 60 سم وتفصل بينها أعمدة قصيرة مزدوجة تعلوها عقود مختلفة الأشكال لكن بصورة خاصة على هيئة مقبض القفة أو ما تسمى بالعقود المستعرضة ، هذه الفتحات التي تسمى محليا الدُكانات تستخدم للجلوس عليها وكأنها عبارة عن أرائك مدمجة بالجدار هذه الأرائك تكون مكسوة عادة ببلاطات خزفية من الأسفل إلى مستوى تيجان الأعمدة في الأعلى أي ما بقدر ما يتكئ الإنسان ، ومفروشة بالرخام أو الأردواز .

في بعض المساكن في أقصى السقيفة يوجد إيوان حيث يجلس صاحب المسكن يتقدمه ملقف للإنارة كما هو الحال بدار الصوف مثلا ، وقد تتعدد السقائف في المسكن الواحد كما هو الحال بدار عبد اللطيف أو دار مصطفى باشا التي يوجد بها سقيفتان ، سقيفة أولى صغيرة الحجم تضم أربع دكانات فقط ، اثنتان على كل جانب تستخدم لاستقبال الضيوف العاديين والمتواضعين ، تليها سقيفة ثانية كبيرة الحجم مستطيلة المسقط تستخدم لاستقبال الضيوف الأكثر أهمية ، ويبدو أن تعدد السقائف يرجع في الغالب إلى كبر مساحة المسكن مما يترك للمعماري الحرية في زيادة بعض العناصر ، وهذا طبعا بناء على طلب صاحب المسكن ، ويمكن أن تقام السقيفة الثانية للفصل بين مبنى المرافق الخاصة بالخدم والحاكم .

ومن النادر أن يتجاوز أي رجل هذه السقيفة إلى الداخل حتى وإن كان قريبا للعائلة إلا في بعض المناسبات النادرة .

وقد عرف عنصر السقيفة في معظم البلدان الإسلامية منذ القرون الأولى وإن اختلفت المصطلحات التي استخدمت للتعبير عنه ، فقد أطلق عليه في المشرق اسم دهليز ، وفي تونس سمي محليا بـ : " الدريبة " ، وقد برز عنصر السقيفة في العمارة الجزائرية أكثر خلال العهد العثماني ، وأصبح من العناصر الأساسية التي تدخل في تركيب المسكن و لا يمكن الاستغناء عنها على غرار الفناء المركزي والسطح .

2 - الفناء المركزي (وسط الدار) :

يعد الفناء المركزي من السمات البارزة والموحدة في المساكن الجزائرية ، كما يعد المصدر الوحيد للنور والتهوية بهذه المساكن التي تخلو من النوافذ المطللة على الشارع ، يكون هذا الفناء مربعا أو مستطيل المسقط في أغلب الأحيان ويكون حجمه متناسبا مع حجم المسكن ، ويمكن أن تتوسطه نافورة ماء أو جب بحسب ثراء المالك ، أما بالنسبة لأرضيته فغالبا ما تبلط بالرخام .

يقع هذا الفناء عادة في الطابق الأرضي لكن قد نجده أحيانا في الطابق الأول كما هو الحال في دار حسن باشا (القصر الشتوي) .

وقد عرف الفناء المركزي منذ القدم في عمارة بلاد ما بين النهرين ، الإغريقية الفينيقية والرومانية إلا أنه أخذ شيئا من الخصوصية بالجزائر ، من حيث الشكل والوظيفة ففي العمارة الرومانية مثلا الغرف كانت تتوزع حول الفناء من جهة واحدة فقط وكانت غرفا متخصصة من حيث الوظيفة مثل استقبال الضيوف أو المعيشة ، أما بالجزائر فقد كانت تتوزع حول الفناء من جهاته الأربع ، ولأنه كان يعد متنفسا للنساء اللاتي لا يخرجن إلى الشارع إلا نادرا فقد حرص الجزائريون في الفناء على توفير النظافة الفائقة وتلطيف الجو باستخدام الرخاميات والخزفيات .

3 - الأروقة :

إذا تكلمنا هنا عن الوضع العام الذي نجده بأغلب المساكن الجزائرية فإنه يتمثل في أربع أروقة محيطة بالفناء المركزي ، عبارة عن ثلاثة عقود ذات شكل حدوي أو متجاوز منكسر محمولة على أعمدة لولبية ، أسطوانية أو مركبة من الشكل المثلث واللولبي ، وتعلو العقود وتفصل بينها أشرطة من البلاطات الخزفية تزيد من جمالها وتكسر صمتها وتصل بين تيجان الأعمدة روافد خشبية لتدعيمها ، ويبلغ متوسط عرض هذه الأروقة 1,2 م ، وتتنظم العقود بحيث يقابل العقد الثاني مركز الفناء وعلى نفس المحور نجد أبواب الغرف الأربع بحيث يرى من الغرفة الفناء مباشرة .

في الطابق الأول والثاني تكون الأروقة محفوفة بدرابزين من الخشب المزين بمختلف الزخارف والنقوش المنجزة محليا ، ونادرا ما وجدت في بعض المساكن القديمة جدا درابزين مبنية بالحجارة والأجر ، وقد نرى غرفة مفتوحة (إيوان) يتقدمها رواقان من العقود المحمولة على الأعمدة ، وتختار هذه الغرفة متجهة إلى الجنوب وقد ينصب في وسطها كرسي كالعرش يجلس عليه صاحب المسكن .

هذا الوضع هو المثالي والشائع بالنسبة للأروقة ويمكن أن يقل عدد العقود إلى اثنين أو واحد فقط ، ويمكن أن يزيد إلى أربعة بحسب حجم المسكن ، وفي كل الحالات فإنه بكل جهة من الجهات الأربع توجد غرفة واحدة ، ويكون عرض الغرف ثابتا دائما تتحكم به الروافد الخشبية التي تحمل السقف ، أما الطول فقد يصل إلى 15 م في بعض الأحيان .

4 - الغرف :

أبواب الغرف تكون دائما من الخشب ، كبيرة ، ثقيلة جدا وبمصراعين ، ويكون علوها هو علو السقف نفسه ، أما النوافذ فإنها صغيرة تتقدمها شبابيك معدنية متينة جدا ولذلك فإن الاعتماد الأساسي في دخول النور والهواء إلى الغرفة يكون على الأبواب .

في الداخل جدران الغرف مكسوة إلى ارتفاع بقدر ما يتكئ الإنسان بمربعات البلاطات الخزفية ومبيضة بعد ذلك إلى الأعلى بالجير حتى السقف ، و بعض مساكن الأغنياء تتوفر على أسقف خشبية مزخرفة برسوم بديعة الألوان ونقوش مذهبة .

تقابل باب الغرفة دخلة يعلوها عقد منكسر كانت تسمى محليا " القبو " (بسكون القاف) وتظهر من خارج المسكن متقدمة عن البناء ، وهي تمثل البروز الذي تكلمنا عنه آنفا و قلنا أنه مدعوم بروافد خشبية وقد يلتحم مع بروز المسكن المقابل ليصبح الشارع ممرا مسقوفا .

تتخلل عمق الجدران فتحات مربعة تعلوها عقود على هيئة مقبض القفة ، أبوابها من الخشب بدفتين وتضم رفوفا من الخشب أيضا ، لكن الجزء الأعلى الذي يضم العقد بدون باب ، تستخدم هذه الفتحات كخزائن جدارية لحفظ الأمتعة .

بالنسبة لتأثيث الغرف فيجمع الكتاب على أنها لم تكن ماثثة جيدا ، وفي هذا الصدد يقول فايدو : " باستثناء منزل الجنرال يوسف بمصطفى العلوي لا توجد غرفة واحدة بكل إفريقيا الفرنسية ماثثة بشكل جيد ، وكان الجميع اتفقوا على هذا النمط السيئ في منازل الموريسكيين والفرنسيين على حد سواء " ، ويتمثل تأثيث الغرف أساسا في بعض الزرابي المفروشة وبعض التحف المعلقة مثل الأسلحة وجلود السباع والفهود ، أما أرضياتها فقد كانت مبلطة غالبا بالأجر أو بالبلاطات الخزفية .

يمكننا أن ندرج في هذا السياق غرف الخدم والمعيشة والتي تحتل عادة الطابق الأرضي أو تحت الأرضي إن وجد ، بالنسبة لغرف الخدم فتكون عادة صغيرة ومظلمة وقد توجد بها نوافذ صغيرة مطلة على الشارع ، أما غرف المعيشة وتتمثل أساسا في مخازن المؤنة فتكون هي الأخرى صغير ومعممة ، والمطبخ ويكون واسعا ويضم مدخنة في أحد جوانبه ، أما غرفة الغسيل فإنها تضم حوضا في وسطها أو أحد جوانبها كما تضم

جب ماء يسهل معيشة الساكنين ، لكن ماؤه لا يصلح للشرب لذلك فالساكن يستخدمون ماء العيون العمومية (الأسبلة) ، وقد يضم المسكن حماما خاصا به كل عناصر الحمام العمومي من الغرفة الباردة ، الدافئة والساخنة كما هو الحال بدار حسن باشا وقصر 18 بحصن 23 .

5 - السطوح :

غالبا نجد في أحد زوايا الفناء المركزي درجات السلالم التي تسمح بالانتقال بين طوابق المسكن ومنها السطح ، هذه السلالم تكون ضيقة عادة تسمح بمرور شخصين متقابلين فقط ، وتضم في سمك جدرانها فتحات مماثلة تماما لتلك الموجودة في الغرف والتي قلنا أنها تستخدم كخزائن جدارية وغرضها هنا هو نفس الغرض .

السطح يعد عنصرا أساسيا في المساكن الجزائرية ، فضلا عن كثير من الأشغال المنزلية التي تنجز به ، فإنه يمثل متنفسا لأهل المنزل فمنه يشاهد السكان البحر وهذا شيء مهم للغاية بالنسبة للجزائريين لأن لهم متعة كبيرة في ذلك ، وهنا أيضا تلتقي النساء لتبادل أطراف الحديث حيث أن جميع السطوح تضم سلالم للانتقال من مسكن لآخر وكانت هذه هي طريقة انتقال النساء لزيارة بعضهن البعض بعيدا عن فوضى الشارع وأعين المتطفلين .

لقد كانت السطوح محاطة بجدران ترتفع بقدر قامة الإنسان على الأكثر ويمكن أن تقل عن ذلك بكثير ، وقد كانت تزين أحيانا بشرفات على أطرافها ، وكثيرا ما نجد بالسطح غرفة مفتوحة على أحد جوانبها كليا تسمى محليا (المنزه) وهنا يقوم أهل المنزل ببعض أشغالهم اليومية وهم يتمتعون بهواء البحر العليل في الظل وتكون الجهة المفتوحة من المنزه مواجهة للبحر لاستقبال نسيمه العليل ، وفيما عدا هذه الجهة المفتوحة لا يختلف المنزه في تصميمه العام عن الغرف ، ومن العناصر البارزة على السطح نجد المداخل التي تبني على شكل قباب مقلعة بكل زاوية من زوايا السطح وبكل قبة منها تفتح أربع فجوات يخرج منها الدخان والبخار المتصاعد من المطبخ والحمام .